أمير الصمت

دَخَلَ مِنْ بَوَابَةِ الْمَدْرَسَةِ بِوَجْهِهِ الْبَشُوشُ، مُشْرِقًا بِأَمَلٍ يَكْفِي الْعَالَمَ بِأَكْمَلِهِ، دَخَلَ دُونَ أَنْ يُعِيرَهُ أَحَدٌ اهْتِمَامًا ، بِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ كَانَ وَاثِقَ الْخُطَى يُدِيرُ رَأْسَهُ يَمِينًا وَيَسَارًا بَاحْتِئًا بِعَيْنَيْهِ عَنِ شَيْءٍ مَا !!! جَلَسَ فِي أَحَدِ الْجَوَانِبِ فِي صَمْتٍ شَامَخَ وَسَطَ ضَجِيجِ التَّلَامِيذِ بِفَنَاءِ الْمَدْرَسَةِ، فَجَاءَتْ !!! اتَّسَعَتْ عَيْنَاهُ فَرِحًا وَقَفَزَ مِنْ مَكَانِهِ، لَقَدْ رَأَى نُورَ يَدْخُلُ مِنْ بَوَابَةِ الْمَدْرَسَةِ مُنْجَهًا نَحْوَهُ بِابْتِسَامَتِهِ الْهَادِنَةِ، سَلَّمَ كُلُّ مَنْهُمَا عَلَى الْآخَرِ وَدَارَ بَيْنَهُمَا حِوَارٌ بَلِغَةٌ مُخْتَلَفَةٌ ، بَدَتْ حَمِيمِيَّةً وَدُودَةً ، كَادَتْ تَكُونُ صَامِتَةً لَوْلَا صَوْتُ انْتِطَاقِ ضَحِكَاتِهِمَا الَّتِي امْتَزَجَتْ بِصَخَبِ الْفَنَاءِ مِنْ حَوْلَهُمَا، إِلَى أَنْ قَاطَعَهُمَا التَّنْوِيهِ عَنْ إِعْلَانِ نَتِيْجَةِ الْعَامِ الدَّرَاسِيِّ.

وَفِي وَسَطِ جَمُوعِ التَّلَامِيذِ وَقَفَا بِانْتِبَاهٍ، يَمَلَأُ عَيْنَيْهِمَا الشَّغْفَ وَالتَّرَقُّبَ فِي انْتِظَارِ النَتِيْجَةِ، كَانَ التَّفَوُّقُ حَلِيفَهُمَا كَالْعَادَةِ، فَأَشَارَ نُورٌ لِصَدِيقِهِ بِاللُّغَةِ الْمُخْتَلَفَةِ ذَاتَهَا يَهْنِئُهُ بِنَتِيْجَتِهِمَا، لِيَقْفِرَا مَعًا فَرِحًا بِتَفَوُّقِهِمَا وَصَدَاقَتِهِمَا الْجَمِيلَةَ، صَدَاقَةٌ يَتَحَدَّثُ عَنْهَا الْجَمِيعُ، جَمَعَتْ بَيْنَ أَمِيرِ الطَّالِبِ الْأَصْمِ الَّذِي التَّحَقَّقَ بِمَدْرَسَةِ عَادِيَّةٍ لِلْسَّامِعِينَ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَنُورِ الطَّالِبِ السَّامِعِ الْمُتَكَلِّمِ الَّذِي أَحَبَّ أَمِيرَ مُنْذُ أَوَّلِ لِقَاءِ لُهُمَا فِي الْمَدْرَسَةِ، فَأَمِيرٌ ذَلِكَ الْوَلَدِ الَّذِي جَاءَ لِلْحَيَاةِ وَسَطَ سَعَادَةِ الْأَبْوَيْنِ بِوِلَادَتِهِ وَلَهْفَتِهِمَا لِيَوْمِ سَمَاعِ صَوْتِهِ بِأَجْمَلِ الْكَلِمَاتِ فِي الْعَالَمِ .. مَآ ... بَابَا ... يَبْدَأُ فِي اللَّعْبِ وَالنِّدَاءِ عَلَى الْأَمِيرِ الصَّغِيرِ، لَكِنَّهُمَا يُلَاحِظَانِ شَيْئًا غَرِيبًا مَعَ الْأَيَّامِ، أَمِيرُنَا لَا يَنْتَبِهَ لِصَوْتِ النِّدَاءِ !!!

وَمَعَ مَرُورِ الْوَقْتِ يُعْلَنُ أَنَّهُ مِنْ عَالَمِ الصَّمْتِ، يَقَعُ الْخَبْرُ عَلَى الْأَبْوَيْنِ كَالصَّاعِقَةِ، لَكِنَّهُمَا يَسْتَوْعِبَانَهُ بِفَضْلِ إِيْمَانِهِمَا بِاللَّهِ، فَيَحَاوِلَانِ الْإِطْلَاقَ وَالسُّؤَالَ وَالتَّحَاوُرَ وَزِيَارَةَ الْأَطِبَّاءِ وَالمُتَخَصِّصِينَ، لِيَعْرِفَا كَيْفَ يَبْنِيَانِ جَسُورَ التَّوَاصُلِ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ أَمِيرِهِمَا الصَّغِيرِ، وَكَيْفَ يُعَلِّمَانَهُ أَنْ يَبْنِيَ جَسُورَ التَّوَاصُلِ مَعَ الْحَيَاةِ، وَلَيْسَ أَفْضَلَ مِنَ التَّخَاطُبِ طَرِيقًا لِذَلِكَ التَّوَاصُلِ، وَتَعْلِيمُهُ لُغَةَ الشِّفَاهِ لِيَفْهَمَ مَا يَدُورُ مِنْ حَوْلِهِ، وَلَمْ يَنْجَاهِلَا تَعْلِيمُهُ لُغَةَ الْإِشَارَةِ لِيَتَّوَاصَلَ أَيْضًا مَعَ رِفَاقِ الصَّمْتِ.

يَكْبُرُ أَمِيرٌ بِضِعِّ سَنَوَاتٍ تُؤَهِّلُهُ لِدُخُولِ الْمَدْرَسَةِ، وَيَحْتَارُ الْوَالِدَانِ فِي إِخْتِيَارِ الطَّرِيقِ الْأَفْضَلِ لِصَّغِيرِهِمَا، فَمَا طَرِيقَ الْعِلْمِ فِي مَدَارِسِ الصُّمِّ، وَإِمَّا الطَّرِيقَ الَّذِي سَلَكَاهُ وَكَانَا يَتَمَنَّى أَنْ يَسْلُكَهُ الْأَمِيرُ الصَّغِيرُ، وَهُوَ التَّعْلِيمُ الْعَامُّ بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ عَالَمِ الضَّجِيجِ. بَعْدَ بَحْثٍ وَتَفَكُّيرٍ يَسْتَقِرُّانِ عَلَى الطَّرِيقِ الْأَخِيرِ، أَيْسَ رَفَضًا أَوْ هُرُوبًا مِنْ وَاقِعِ أَمِيرِهِمَا الصَّغِيرِ، وَلَكِنْ إِيْمَانًا بِقُدْرَاتِهِ. بَدَأَ أَمِيرٌ أَوْلَى خَطَوَاتِهِ، فَلَمْ يَكُنِ الطَّرِيقَ مُمَهَّدًا لَهُ بَلْ كَانَ مَفْرُوشًا بِالْمَصَاعِبِ، فِي الْمَدْرَسَةِ الَّتِي قَبِلَتْهُ بِصُعُوبَةٍ بِالْغَةِ ... كَانَتْ عِيُونُ الْجَمِيعِ تَنْظُرُ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ مِنْ عَالَمٍ آخَرَ ، وَعِيُونُهُ الصَّغِيرَةِ تَقُولُ أَنَا مِثْلَكُمْ وَلَكِنِّي فَقَطُّ أَتَكَلَّمُ لُغَةَ أُخْرَى ... لُغَةَ عَالَمِ الصَّمْتِ.

تَجَاهَلَهُ الْجَمِيعُ كَأَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ إِعْلَانِ الرِّفْضِ لَوْجُودِهِ وَاعْتِبَارِهِ مِنْ عَالَمٍ آخَرَ مُخْتَلَفٍ عَنْهُمْ، كَانَ يَتَأَمَّلُ الْجَمِيعُ وَيَحَاوِلُ الْفَهْمَ وَالتَّعْلُمَ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يُحَاوِلُوا بِنَاءَ أَيِّ جَسُورٍ مِنَ التَّوَاصُلِ مَعَهُ، كَادَ يُدَاهِمُهُ الشُّعُورُ بِالْحُزْنِ وَالْوَحْدَةِ لَوْلَا انْضِمَامُ ذَلِكَ الطَّالِبِ الْجَدِيدِ لِلصَّفِّ .. إِنَّهُ نُورٌ، الَّذِي اسْتَقْبَلَهُ أَمِيرٌ بِابْتِسَامَتِهِ الْوُدُودَةِ، مَدَّ يَدَيْهِ الصَّغِيرَتَيْنِ يُصَافِحُهُ وَيَدْعُوهُ لِلْجُلُوسِ بِجَانِبِهِ، لِيَتَبَدَأَ بَيْنَهُمَا صَدَاقَةٌ جَمِيلَةٌ كَانَتْ الْإِبْتِسَامَةُ هِيَ مِفْتَاحَهَا وَطَرِيقَهَا، بَدَأَ يَتَّوَاصَلَانِ بِبِرَاءَةِ الْأَطْفَالِ، تَكَلَّمَ أَمِيرٌ بِشَفْتَيْهِ فَسَمِعَهُ قَلْبُ نُورِ الصَّغِيرِ ، وَمَعَ مَرُورِ الْوَقْتِ تَعَلَّمَ نُورٌ مِنْ صَدِيقِهِ بَعْضَ الْإِشَارَاتِ ...

أحياناً كان يصعبُ على أميرِ فهمِ الكثيرِ داخلِ المَدْرَسَةِ إلا أنَّ والديه كانا دائماً طوقَ النجاةَ له، فبعد كلِّ يومِ درَاسي فيه الكثيرِ مِنَ الطَّلَاسِمِ وَعَلَامَاتِ الاستفهامِ يذهبُ إلى البيتِ ليجدَ الإجاباتِ بِفَضْلِ مُسَاعَدَتِهِمَا وَدَعْمَهُمَا لَهُ، حَتَّى إِنَّهُ اسْتَطَاعَ مُسَاعَدَةَ نُورِ فِي التَّغْلُبِ عَلَى مُشْكَلَتِهِ فِي صُعُوبَةِ الحِفظِ وَسُرْعَةِ النِّسيانِ بِفَضْلِ لُغَةِ الإِشَارَةِ !!! نَعَمْ ... كَانَ يُتَرَجِّمُ أَمِيرٌ لِصَدِيقِهِ النَّصَّ بِلُغَةِ الإِشَارَةِ فَسَاعَدَهُ عَلَى الحِفظِ وَسَهْوَلَةِ الإِستِرجَاعِ، هَكَذَا كَانَتْ صِدَاقَتُهُمَا مِثَالاً صَغِيراً لِئَسِيحِ مُجْتَمَعِ مُتَفَاعِلِ يَقْبَلِ الإِختِلَافَ ... فَبَعْضُ الإِختِلَافِ تَمِيزٌ، إِلا أَنَّهُ رَغِمَ تَفَوُّقَهُ ظَلَّ يُرَاوِدُهُ دَائِماً سُؤَالٌ ... ؟؟؟!!! إِلَى أَن قَابَلَ صَدِيقَهُ الأَصْمَ الَّذِي يَتَعَلَّمُ بِمَدْرَسَةِ الصُّمِّ وَضِعَافِ السَّمْعِ.

كَانَ اليَوْمَ إِعْلَانُ النَتِيجَةِ بِمَدْرَسَتِهِ أَيضاً، عِنْدَمَا سَأَلَهُ عَن نَتِيجَتِهِ فَأَجَابَهُ بِضِحْكِهِ حَزِينَةٍ: نَجَحْتُ رَغِمَ أَنَّي لِأَجِيدِ القِرَاءَةَ وَالكِتَابَةَ !!! لِئِتِسَاءِ أَمِيرِ بِدَهْشَةٍ: كَيْفَ ؟؟؟!! لِئُجِيبَ الصَّدِيقَ الأَصْمَ بِحُزْنٍ: فِي مَدْرَسَتِنَا لِأَنفَهُمُ شَيْئاً، فَالْمُعَلِّمُونَ لِأَجِيدُونَ لُغَةَ الإِشَارَةِ، نَنسَخُ مَا يَكْتُبُونَهُ لَنَا دُونَ فِهْمٍ، وَفِي الامْتِحَانَاتِ يُمْلُونَ عَلَيْنَا الإِجَابَاتِ، وَكَأَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ لَنَا بِأَنَّهُ يَكْفِينَا تَعَلُّمَ كِتَابَةِ أَسْمَائِنَا فَقَط. سَكَتَ الإِثْنَانُ لِحِظَّةِ كَانَتْهَا دَهْرٌ .. لِئِستَكمَلِ الصَّدِيقَ الأَصْمَ مُسْتَدْرِكاً: أليسَ مِن حَقِّنَا أَن نَتَعَلَّمَ ؟؟؟!!!، شَرَدَ أَمِيرٌ قَلِيلاً ... فَقَدَ عَرَفَ الآنَ فَقَطَ إِجَابَةَ سُؤَالِهِ ...

مَشَى الإِثْنَانُ بِرُؤُوسِ مَرْفُوعَةٍ لِلسَّمَاءِ وَقُلُوبٌ تَدْعُو ... بِوَأَقِعِ وَتَعْلِيمِ أَفْضَلِ لِلصُّمِّ .